# الشبيه

بقلم
راشد رستم

كان ذلك بدار السينما فى احدى ليالى القاهرة فى جو خريفها اللطيف وكان (راتب) قد تناول العشاء على مائدة صديقه (عزمى) وزوجته السيدة الفاضلة (كليرة هانم) التى كانت تزين المائدة رونقا وبهاء بروحها المرحة وحديثها الشهى ، أزهى وأشهى من تلك الزهرات الجميلات ومن هذه المتقنات من الصحاف والمشهيات ·

أمتد حديث المائدة مما جعلهم يصلون الى دار السينما بعد ابتداء العرض ·· فاتخذوا سبيلهم فى الظلام الى مقصورتهم المحجوزة من قبل ·

ولما انتهى القسم الاول من العرض أنيرت الصالة وبدأت حركات الاستطلاع بين الجمهور ، واخذ الحاضرون يتبين بعضهم بعضا · وهى عادة كانت لها أهميتها البالغة عند رواد السينما المصرية فى ذلك العهد ، وبالاخص فى حفلات المساء المعروفة بالسواريه ·· حيث تقصدها العائلات فى المقصورات ، وكم من التعارف وكم من الصداقات بل كم من الزيجات تمت فى تلك الأجواء مثلها مثل شواطىء البحار والبلاجات مع فوارق كبيرة بين هذه وتلك · · بين الدور المقفولة وبين الطبيعة المفتوحة ، الطبيعة السافرة المكشوفة التى تهيىء فى المصايف كل أنواع الاختلاط بين مختلف الناس والاجناس لأيام طويلة مقمرة ومظلمة، ليلا ونهارا ، بحرا وبرا·

أشعلت كليرة هانم سيجارة من سجايرها الفاخرة واعطت واحدة لراتب ثم أجالت ببصرها فى الصالة ، واذا بها تعود مسرعة من جولتها · · وكأنها كشفت شيئا غريبا أو وقفت على أمر جلل ·· ثم أقبلت على زوجها السيد عزمى فى كثير من الاهتمام باللطافة والرقة ، تسترعى نظره الى احدى المقصورات القريبة ، وأبدت اشارة لطيفة خاطفة بغمزة العين الذكية عرف منها عزمى انه ليس هو المقصود بكلامها وانما الكلام الى صديقهما راتب على حد قول المثل ، الكلام لك واسمعى يا جارة وكان راتب قد لحظ هذه المناورة الخفية وأدرك ما تقصده كليرة هانم من المداعبة، ولكنه تظاهر بالتجاهل وكأنه لم يلحظ شيئا ·

عزمى ـ (مبتسما) كن معنا يا سيد راتب ·

راتب ـ اننى معكما اسمع وأرى ·

كليرة هانم ـ أبدا ، انت لست معنا ·· أنا أعرف أين أنت الآن ـ كما أعرف انك حقا ترى ولكنك حقا لاتسمع·· معذور، ان من كانت عليه العيون والانظار فله حق التسامى وحق البغددة ·

عزمى ـ ماذا فى الامر ؟ ايه الحكاية؟ خبرانى ·

كليرة هانم ـ أن سيدة جميلة مع جماعة من السيدات والرجال فى احدى المقصورات القريبة منا تشير الى راتب بنظراتها ·· ثم تتحدث عنه كثيرا · · وتلفت نظر من معها اليه ·

عزمى ـ وماذا فى هذا ؟ ثم كيف أدركت ذلك ؟

فتقول انها تكاد تجزم بذلك رغم انها لاتسمع الالفاظ لبعد المسافة ثم تقول : هذه أمور تعرفها نحن ولا تعرفونها أنتم ، ومن يدرى ياسيد راتب ، لعل الفرج قريب فلا نعود نراك وحيدا فريدا ·

***

وهنا انتهت فترة الاستراحة ، وأطفئت الانوار وعاد الظلام فاتجهوا الى الشاشة وقد أخذتهم طلاوة الرواية والمناظر والموسيقى والتمثيل ·

وعند انتهاء العرض كان اولئك الذين يحتلون تلك المقصورة قد تركوا أماكنهم فى آخر الظلام وقبل الزحام · والله يعلم وتلك السيدة تعلم وراتب يعلم وربما آخر يعلم لماذا قامت تلك السيدة مسرعة بمن معها قبيل انتهاء العرض وقبل اضاءة الانوار ·

وفى الحق ان راتبا يعرف تلك السيدة أكمل معرفة ·· ولكنه أراد التغطية وقد أتقنها اتقانا ببراعة فائقة ، وكان قد عقد النية من زمان بعيد على الاحتفاظ بسره مع نفسه، غير انه جعل يفكر بماذا كانت تتحدث عنه · · ولماذا تعمدت التظاهر بذلك ، مع انه كان أولى بها ألا تفعل ذلك على الاقل بل على الاهم ان زوجها معها ، ثم لماذا هى تبدى ذلك النوع المايع من الابتسامات «الجوكندية» ·

عاودت راتبا الذكريات وشعر انه يسايرها فى النظرات ، يختلسانها اختلاسا مع تبادل التيارات النفسية الخفية التى تختزنها القلوب التى فى الصدور ·

وانى لألقاها وقد سر طرفها
بطرفى بما يخفى وان لم تكلم
وتبخل عنى بالسلام وعينها
تشير بها نحوى وان لم تسلم

وهذه «المقابلة» التى لم يعلم بها احد سواهما ، والتى لم يكن يتوقعها راتب أو يريدها جاءت بعد هذه السنين الطويلة التى كانت قد سكنت فيها لواعجه وهدأت عواصفه وكان قد ربط اثناءها على قلبه ليكون من الصابرين الناسين لولا الحنين وصدى السنين ·

والليلة وقد أطلت الذكريات من خلال هذه النظرات بعد طول هذه السنين يتذكر راتب ويذكر ما يعتقده دائما من أن ذكرى الشقاء شقاء وذكرى السعادة شقاء ·· ذلك ان الذكريات انما هى حسرات ·

ومن النفوس ما ليس لها الا ما هو بين يديها، وقد تتقلب مع الجهات «الاربع» دون تمنع أو تقنع بل وفى تحد وتصنع

مع القدرة على النسيان ، هذا النسيان الذى قد يحيى الانسان ولكنه يميت الوجدان ٠

واما السيد راتب فهو من أولئك النفر الميامين النادرين الذين لا تموت العاطفة عندهم أبدا ٠٠ يعيشون بالحب وهو دفين ، لايطرأ عليه تبديل أو تحوير أو تغيير ، مهما زلزلت الارض زلزالها وأخرجت الارض أثقالها ، ومهما طال عليهم القدم أو تعرضوا لشتى المحن ٠٠ « يجىء الزمان ويروح وانت حبيب الاجل » ٠٠ الخ ٠٠

والآن٠ أليس من الخير للمرء أن يحب ويتعذب ويفقد من ألا يحب أبدا ؟ ثم هل فى طوع المرء أن يحب وألا يحب ؟ هل يستطيع المرء الذى يحب ألا يحب ؟ تلك أسئلة وأمثالها لاتزال قائمة دون أن تكون لها اجابات قاطعة حاسمة ٠

حاول راتب ألا يشغل باله بتلك المقابلة المفاجئة ولكنه سهر الليل فى قلق ، ونفى عنه الكرى طيف ألم ٠ ٠ واستعان على قلقه وأرقه باسطوانة « لحن الحب» الشهيرة لاحد أكابر الموسيقيين الغربيين ، فاذا به لايستسيغ سماعها الليلة وقد كان يرتاح اليها كل ليلة ، وجعل يقول ، ما أجرأ هذا الموسيقار ، انه يريد أن يقحم لحن حبه على حب غيره ألا يدرى أن لكل محب حبا وأن لكل حب لحنا ؟

***

وفى الصباح التالى اذا بكليرة هانم تطلبه تليفونيا وتقول له بعد تحية الصباح بانها حاولت الاتصال به ليلتها فلم توفق ، ثم هى تؤاخذه على عزوفه عن الناس أحيانا كثيرة ، مع انه بطبعه الاصيل رجل اجتماعى يحب الناس وتحبه الناس ٠

ثم تخبره بانها عرفت كل شىء يخص حادثة السينما وحديثها ٠٠ وانه برىء مما كانت تتهمه به فيشكرها راتب لاهتمامها ، ويسألها زيادة الافصاح ٠٠ فتقول :

كليرة هانم ــ بعد ان تركناك أمس أخذنا مقعدنابمترو مصر الجديدة من أول محطة شارع عماد الدين لقربها من سينما ديانا ٠٠ واذا بنا فى مواجهة الجماعة اياهم الذين كانوا فى تلك المقصورة ، وتبادلنا التحيات ، ومما جرأنى على ذلك اننى وجدت تلك السيدة التى كانت تتحدث عنك ، وجدتها سيدة لطيفة ، كريمة التحية ، طيبة اللقاء ، لها جاذبية وفيها دعة كما لاحظت ميلها الى المعاشرة والاختلاط وكذلك الرغى ٠٠ الذى أميل أنا كذلك اليه ٠

راتب ــ سبحان من وفق وجمع ٠٠ ثم ماذا ؟

كليرة هانم ــ لماذا تتعجلنى هكذا ! ٠ هل فيما فعلت شىء لا يرضيك ؟ ان أعصابك فى هذا الصباح هى بين هادئة وعاصفة ٠٠ على رأى تنبؤات الجو ٠٠ فما بالك طوال اليوم ٠٠ اهدأ يا أخى اسمع ان المسألة بسيطة وان كانت غريبة ، يظهر انه كان لك شبيه يقربك كثيرا فى الشبه والشكل والحركات ٠

راتب ــ ماذا ؟ شبيه !! من هو هذا الشبيه ! شىء جديد ٠

كليرة هانم ــ نعم ، وماذا فى هذا ، يخلق من الشبه أربعين ، انك عصبى المزاج اليوم ٠٠ المسألة تنحصر فى انهم كانوا يظنون انك اياه لدقة ما بينكما من

الشبه ، ولكن تلك السيدة هى التى كانت تقنعهم بأنك لست هو ·

راتب هكذا ! وهل هى تعرفنى ·

كليرة هانم ـ انك غريب الشأن · هى لم تقل انها تعرفك ، هى تقول انها تعرف ذلك الذى كان يشبهك ، ذلك الشبيه ، والذى تقول انه مات منذ عشرين عاما ·· فهل ارتاحت نفسك الآن ·· كن يا أخى طويل البال ، واسع الصدر ، حسن الظن ·

راتب ـ (متهكما) غريبة ! يظهر انها قوية الذاكرة ·

كليرة هانم ان تقارب التشابه هو الذى أثار الحديث ·· ولكن دعنا من هذا (مداعبة متهكمة) ان الامر أجل وأعظم لقد سألتنى عنك ومن تكون وهل أنت متزوج ·· و ··· و ···

راتب ـ ما شأنها ؟

كليرة هانم حيلك ·· على رسلك · انها أحاديث السيدات ، وقد أخبرتها بكل شىء عنك وعن زواجك وموت زوجتك من زمان بعيد ، وانها كانت شابة جميلة أصيلة ، مهذبة ، ان حبكما كان نادرا ·· حتى انك ترفض سيرة الزواج ·· الزواج ، وترفضه من أجلها رغم المحاولات معك وقد أعجبت بذلك وامتدحتك ·

راتب ـ شكرا ، وبالاخص فيما يتعلق بالزواج والتزوج كما يفعل الكثيرون مرة بعد مرة !· قل كل يعمل على شاكلته ·

كليرة هانم ـ الهدوء ·· الهدوء ·· ألا تحضر تقضى اليوم معنا! أرجوك وعزمى يرجوك ، وأنا آسفة لاثارة موضوع المرحومة زوجتك ، هذا ونسيت ان أذكر لك باننى سأزورها بناء على الحاحها ·

راتب هكذا بسرعة ! متى ؟

كليرة هانم ـ سنتفق تلفونيا ·· هل فى هذا غرابة ! أقول لك الحق اننى استلطفتها · ثم قل لى ياأخى ، هل بينك وبينها ثأر ·· ماهذا ! اسمع نحن فى انتظارك ·

راتب ـ لاثأر ولا غيره، ولكن ألا يكفى انها أماتتنى وأنا حى ·

كليرة هانم ـ قلت لك مرارا انها لاتقصدك ·· انها تتحدث عمن كانت تعرفه ·

راتب فليكن · ولكن ألم تساليها عن ذلك الشبيه !

كليرة هانم ولماذا أسألها ·

راتب ـ فى باب أحاديث السيدات·· على أنى أرجوك رجاء خاصا أن تساليها عنه ، أريد أن أعرف ذاك الشبيه ومن يكون ! «وان الذين اختلفوا فيه لفى شك منه ، مالهم به من علم الا اتباع الظن »·

كليرة هانم ـ سأفعل · اطمئن جدا ، اهدأ ، ألا ترى يا أخى انك موضع الاهتمام ومحط الانظار ، اشكر الله ·· انه شىء عظيم ·

راتب ـ لاعظيم ولا شىء ، ان البعد عن مثل هذه الانظار غنيمة على أنى هادىء مطمئن ، مؤمن راض بما قسم الله لى ·

***

ثم يذهب راتب الى تمضية اليوم عند صديقيه عزمى وكليرة هانم وتدور الاحاديث عن الناس وطبائع الناس وأحاديث الناس وليس غير الناس ويعمل عزمى وكليره جهدهما للتخفيف عنه ، أما هو فيتكلم شارحا نفسه

فيتركانه يتحدث وينصتان اليه باهتمام يرضيه ويخفف عنه فيذكر زواجه وضياع زوجته التى كان يحبها حبا لم يحبه لأحد ٠ ٠والتى كان يرجو ويعمل لان تعيش معه ، يقول : كان الحب بيننا نفسيا ، ولكن كان الزواج تعسا ٠

ويتحدث فيقول سبحان الذى يجمع بين الحب والزواج ٠٠ ويقول عن حبه أنه احتفظ به نابضا حيا قويا ، وانه استطاع بعد مجهود كبير شاق أن يفرق بين الحبيب والحب، وأن يميز بين هذا وذاك وان هذا شىء وذاك شىء آخر ٠٠ وانه يعلو بالحب عن الحبيب ، أنه مسؤول كل المسئولية عن الحب ، غير مسئول أقل المسئولية عن الحبيب ٠

***

يقول انه استطاع أن يجعل من حبه بديلا عن شريكة الحياة ٠٠ اذ هو من الموحدين، دنيا ودينا ، جعل حبه وحيده الذى يرعاه وحده ، أعز شىء لديه ٠ ٠ يؤنسه فى وحدته ويخفف عنه فى محنته ؛ بل يدفعه الى الامل فالعمل ٠٠ الى المجتمعات والندوات والقوميات والوطنيات فضلا عن الانتاج الادبى الذى هو غريزته ٠

جعل لحبه روحا وكيانا ، وكاد أن يخلق منه انسانا ٠

ويشرح رأيه يقول ، مزاجان وعقليتان ونشأتان هى العوامل الثلاثة للزواج ٠٠ لابد من التعادل بينها ، متساندة متماسكة حتى تكون الحياة الزوجية سعيدة ناجحة فاذا اختل التعادل صعب التعامل ٠٠ واذن لكل وجهة هو موليها ٠٠ لا ضرر ولا ضرار ٠

وينتهى راتب الى فكرة تحولت الى عقيدة انطوى عليها قلبه يسير بها فى ركب الحياة وحيدا وان كان وسط المجاميع من البشر ٠

ـ «محبوبه هو حبه وحبه هو محبوبه» وكان الله يحب المحسنين ٠٠

***

أنصت كل من كليرة هانم وزوجها الاستاذ الكبير عزمى ، فى هدوء وانتباه واشفاق مع عطف أصيل لصداقة قديمة عظيمة متينة صافية سامية نامية ٠

ـ كليرة هانم (فى رقة وعطف)، تسمح يا راتب ان أسألك سؤالا أرجو ألا يثير منك ثائرة الاعصاب ٠ «انا نراك من المحسنين» ٠

راتب تفضلى ٠ اسألى ماتشائين اطمئنى انى قادر على نفسى بايمانى وارادتى ٠٠ ولأنى أرى دائما أن البادى أظلم ٠٠٠

كليرة هانم ـ لماذا تضايقت هذا الضيق الشديد الذى أخرجك عن هدوئك المعهود ؟

راتب ـ (بعد فترة سكون) أن تلك السيدة هى التى كانت زوجتى ٠٠٠